الرحمة قيمة إسلامية وفضيلة إنسانية

د. عمر رمضان العبيد*

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد الرحمة المهداة والنعمة المسداة المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فإن الرحمة في حقيقتها تتضمن الرقة والرأفة والشفقة ولين الجانب والعاطفة الفياضة بالخير لكل الناس حيث أنها تتجلى ابتداء في وجود البشرية ، وفي نشأتها من حيث لا يعلمون، وفي إعطائهم هذا الوجود الإنساني الكريم بكل ما فيه من خصائص فضّل بها الإنسان على كثير من العالمين ، وتتجلى أيضا في هدايتهم لهذا الدين القويم وسيرهم على الصراط المستقيم، ورحمة الله تفيض على عباده جميعا وتسعهم جميعا وبها يقوم وجودهم وتقوم حياتهم ، وهي تظهر في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات ، وهي في حياة البشر خاصة فلا نملك أن نتابعها في كل مواضعها ومظاهرها الموجودة في هذا العالم من غير بني الإنسان ولكننا سنذكر منها لمحات في مجالاتها الكثيرة والكبيرة وذلك من خلال ثلاثة مطالب: يتعرض المطلب الأول إلى مظاهر الرحمة في القرآن الكريم، أما

* عضو هيأة التدريس بكلية القانون – جامعة الزيتونة

المطلب الثاني فيتناول الرحمة في السنة النبوية الشريفة، ويشتمل المطلب الثالث على رحمة باقي المخلوقات من طيور وحيوانات.

المطلب الأول

الرحمة في القرآن الكريم

فالقرآن الكريم رحمة الله لعباده المؤمنين و﴿نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[1] ففي القرآن رحمة لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان فأشرقت وتفتحت لتتلقى ما في القرآن من رحمة وطمأنينة وأمان ،فالقرآن هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين أي يذهب ما في قلوبهم من أمراض ومن شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله وهو أيضا رحمة يحصل بها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة.

وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدا وكفرا، والآفة من الكافر لا من القرآن[2] ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (3).

---

[1] – سورة الإسراء، الآية: 82

[2] – تفسير القرآن العظيم لابن كثير 59/2.

[3] – سورة فصلت: الآية: 44

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] وما أكثر تكرار وصف القرآن لنفسه بصفة الرحمة وما يلابسها من شفاء ونور وهداية.

ولو اقتصرنا على استقراء معنى الرحمة المرتبط حرفيا بالمادة المعجمية (رح م) لدهشنا لنسبة تكرار حضور هذه المادة، فهي تتوزع صفحات المصحف الشريف كلها، بحيث تبلغ 340 موضعا، تكاد تكون بعدد أيام السنة، لتبلغ نسبة رحمة قرآنية في كل يوم ! ويزيد هذا الأمر رسوخا أن هذا الرقم يتوزع على 32 تصريفًا واشتقاقا مما يدل على سعة تداول القرآن الكريم للفظ الرحمة وعظم تصرفها في ثناياه أفعال وأسماء وصفات، بالمفرد والجمع، بالإسناد والإطلاق، منسوبة لله عز وجل في غالب الأحيان ولرسوله وبعض الصالحين في باقي المواقع موجهة إلى عموم الخلق ، وبخصوص بعضهم بدرجات خاصة بها لتحققهم بأفعال وصفات خاصة استحقوا بموجبها درجة هذا الاصطفاء[5].

ويبرز في هذا الحقل اللغوي الاشتقاقي البديع للرحمة في القرآن، حضور لافت للنظر لكلمتي رحمن (157 موقعا) ورحيم (95 موقعا) . وهما من أبرز أسماء الله الحسنى وأشهرها بعد لفظ الجلالة (الله)، وقد ورد ذكرهما في القرآن الكريم في جميع فواتح السور (بسم الله الرحمن الرحيم) ما عدا سورة التوبة التي نزلت دون البسملة، كما ذكر اسم الرحمن واسم الرحيم منفصلين في كثير من الآيات القرآنية، والمصلى يردد هذين الاسمين في صلاته المكتوبة مالا يقل عن أربع وثلاثين مرة في اليوم فهو كلما أدى ركعة قرأ فاتحة الكتاب﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

---

[4] – سورة يونس: الآية: 57

[5] – مجلة كلية الدعوة الاسلامية : العدد22: ص12.

الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3)﴾ [6] وهي سبع عشرة ركعة في الصلوات الخمس المفروضة على المسلم في يومه وليلته فإذا أدى السنن زاد في ذلك، والرحمن أخص من الرحيم وأكثر مبالغة منه ولذلك لا يسمّى به غير الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [7] ورحمة الرحمن تعم العالمين مؤمنهم وكافرهم، صالحهم وطالحهم، بارهم وفاجرهم؛ أي الخلق أجمعين ، ورحمة الرحيم تخص المؤمنين لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [8] وقيل (الرحمن) من ستر في الدنيا والرحيم من غفر في العقبى، وقال عبدالله بن المبارك (الرحمن) يكشف الكروب و(الرحيم) يغفر الذنوب[9]. وحين يستعمل القرآن الكريم نادرا صيغة اسم الفاعل ، يشفعها بأن يسند إليها اسم التفضيل ، ويجعلها جمعا مطلقا : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [10].

فإذا انتقل الناظر من اللغة المجردة إلى دلالاتها المضمونية ، يدهشه أن الرحمة تكاد تكون كل شيء إيجابي في القرآن الكريم : أو كل خير أو فضل أو بر أو عمل صالح أو نعمة إلهية أو توفيق رباني أو صدقة أو حسنة أو طاعة في معروف يسميها القرآن رحمة ، أو يعللها بالرحمة ، أو يجعل غايتها الرحمة.

---

[6] – الفاتحة: الآيات: 2-3.

[7] – سورة الإسراء: الآية: 110.

[8] – سورة الأحزاب: الآية: 43.

[9] – المختصر من معاني أسماء الله الحسنى لمحمود سامي:ص14.

[10] – سورة الأعراف: الآية: 151.

حتى لا تكاد تكون الرحمة الأول والآخر والظاهر والباطن في النسق التعليلي لتشريع الأحكام والأمر بالأفعال والنهي عن المنكرات .

فالوحي رحمة﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [11] ، والنبي رحمة ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [12] واللين رحمة ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [13]

وتتجلى رحمة الله في النجاة من المهالك والتي لا يسلم الإنسان منها مهما اتخذ من الأسباب والوسائل ك2إلا برحمة من الله[14] ، قال تعالى إخبارا عن نوح عليه السلام في سورة هود: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)﴾[15]

---

[11] – سورة الأنعام: الآية:157.

[12] – سورة التوبة: الآية: 61.

[13] – سورة آل عمران: الآية 159.

[14] – مجلة كلية الدعوة الإسلامية بشيء من التصرف، العدد23لسنة2006، ص58.

[15] – سورة هود: الآية 42 ، 43.

لقد اتخذ ابن سيدنا نوح من الأسباب ما يظن أنها تنجيه من أمر الله ، فاعتقد أن الطوفان لا يبلغ رؤوس الجبال وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق ، ولكن سيدنا نوح وهو المدرك لحقيقة هذا الأمر يخبره بأن لا جبال ولا مخابئ ولا حامي ولا واقي ولا غيرها من الأسباب تنجي من أمر الله إلا من شملته رحمة الله بالعناية والحماية وما أكثر المهالك التي تحيط بنا وتغمرنا من رأسنا حتى أخمص قدمينا ، وما هناك أدنى بصيص في النجاة منها مالم تشملنا رحمة الله . ورحمة الله وجدها سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما ألقاه الكفار في النار فجعلها الله بردا وسلاما عليه ، ووجدها يوسف عليه السلام في الجب ، كما وجدها في السجن ، ووجدها يونس عليه السلام في بطن الحوت ، ووجدها موسى عليه السلام في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة ، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه ، ووجدها الرسول ﷺ وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون آثارهما ، كما وجد هذه الرحمة غيرهم من الأنبياء والرسل فنجاهم الله من مكائد قومهم ومؤامراتهم التي دبرت لهم ، ونصرهم الله على أعدائهم برحمته وهو خير الناصرين ، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾[16] .

القرآن الكريم واضح بصدد عمومية الرحمة فهو يخاطب الناس جميعا ، لا قوما بعينهم ولا جنسا ولا طبقة بعينها ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [17] إنها رحمة الله واسعة شاملة جامعة، قال عز وجل :

[16]– سورة غافر: الآية: 51.

[17]– سورة يونس: الآية: 58.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[18] تسع العالمين ، آية عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى إخبارا عن حملة العرش ومن حولهم أنهم يقولون: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾[19]. ورحمة الله جل وعلا بجميع خلقه أوسع وأشمل وأكبر من أن تحدد أو يحصيها عدد ولا نهاية لها فسبحانه الرحمن الرحيم.

المطلب الثاني

الرحمة في السنة النبوية المطهرة

فالنبي عليه الصلاة والسلام وهو الرحمة المهداة والنعمة المسداة كان مثلا أعلى في رحمته وفي حسن تعامله مع الناس صغيرهم وكبيرهم مؤمنهم وكافرهم، ولذلك أحبه الناس وآمنوا به والتفوا حوله يجاهدون معه في سبيل الله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [20] ، خلق وربي وبعث ليكون رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [21] صنع من الرحمة وجبل على التواضع ، ليقدم للبشرية في آخر عصورها وأقواها و أزهاها

---

[18] – سورة الأعراف: الآية:156.

[19]– سورة غافر: الآية: 7.

[20] – سورة آل عمران: الآية:159

[21] – سورة سبأ: الآية: 28.

،نموذج الإنسان الكامل الذي أراده الله قدوة للبشر" بنوره يهتدون وعلى سنته يمضون ، حتى لا يكون بعضهم لبعض إلا عونا في الخير لا الشر وظهيرا في البنا لا الهدم"[22] .

ها هو القرآن يعلنها واضحة صريحة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ "[23] فتحدد الغاية من خلق سيد الخلق ومن بعثه بالهدى وتكليفه بالرسالة : إنها رحمة العباد كل العباد بلا تخصيص ولا استثناء . رحمة عامة ، فلا رحمة مع الاستثناء والتخصيص وهذا ما فقهه ابن عباس حيث قصر فضل رسول الله على الأنبياء في الأرض ، كونه بعث للناس كافة ، وبعثوا لأقوامهم خاصة[24]. وهو الفهم الذي يزكيه قوله عليه الصلاة والسلام أوتيت خمسا لم يؤتهن أحد قبلي وبعثت للناس كافة أحمرهم وأسودهم، وبعث الأنبياء من قبلي لأقوامهم خاصة.

عن أبي صالح قال : كان النبي ﷺ يناديهم " يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة"[25] يكرر النبي ﷺ حقيقة كونه رحمة عالمية حتى تبلغ هذه الحقيقة بالتكرار إلى العموم بالإلحاح فتنغرس في وعيهم، كان يخاطب بها العالمين لا قومه فقط، (يأيها الناس) ويعبر بالمصدر لا بالصفة (رحمة) للإطلاق والمبالغة، ويعلنها بدون مقابل مجانا لوجه الله لا يريد بها جزاء ولا شكورا، ولا يطلب مقابلا لها على عظمها نعمة (مهداة) ويستعمل أداة الحصر ليبين أنها رحمة خالصة لا منغص لها ولا شائبة تشوبها (إنما) ويعلن بها ، ويدلل عليها ، ينادي بها (يا أيها)

---

[22] – مجلة كلية الدعوة الإسلامية: ص 39.

[23] – سورة الأنبياء: الآية: 107

[24] – رواه الدارمي بسند صحيح

[25] – رواه الدارمي بسند مرسل صحيح

ست حقائق عظيمة تجتمع في عبارة موجزة بليغة كي لا يتسرب إلى ورثة رسالته من بعده أي شبهة احتكار أو علو أو إقصاء ، ولا يشك عموم المخاطبين بهذه الرسالة بأنهم مثلهم مثل من سبقهم للإسلام ،أحق بهذه الرحمة وأهلها إلحاح وتعميم وإطلاق وإهداء وخلوص وإعلان :هذه هي الرحمة المحمدية مبذولة لكل طالب حق أو خير[26] ....

وقد برزت فضيلة الرحمة في سلوك النبي عليه الصلاة والسلام والتي كانت وراء النجاح العظيم الذي حققه في ميدان الدعوة إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [27] فهي رحمة الله التي نالته ونالتهم فجعلته ﷺ رحيما بهم لينا معهم ، ولو كان فظا غليظ القلب ما تآلفت حوله القلوب ولا تجمعت حوله المشاعر، فالناس محتاجون لكنف رحيم وإلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة وإلى حلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يأخذ منهم يحمل همومهم ويرعى شؤونهم ، ويجدون عنده دائما الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والرضا[28]. وهكذا كان رسول الله ﷺ وهكذا كانت حياته مع الناس ما غضب لنفسه قط ولا ضاق صدره بضعفهم البشري ، ولا احتجز لنفسه شيئا من أعراض الدنيا بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية ووسعهم حلمه وعطفه، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه نتيجة لما أفاضه

[26] – مجلة كلية الدعوة الإسلامية: مصدر سابق، ص 41

[27] – سورة آل عمران: الآية: 159.

[28] – مجلة الدعوة الإسلامية بشيء من التصرف عدد 23 ص 56

عليه ﷺ من نفسه الكبيرة الرحيبة، وكان هذا كله رحمة من الله به وبأمته ، وبالقريب والبعيد، والبار والفاجر، والكبير والصغير ، والمرأة والرجل ، والمؤمن والكافر. وما أحوجنا نحن المسلمين اليوم إلى إمام وداعية يتصف بهذه الصفات الكريمة فيستحق رحمة الله فتلين له قلوب العباد ويلتفون حوله ليعيدوا للإسلام عزته وقوته وازدهاره وللمسلمين مجدهم التليد وتاريخهم المجيد، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [29]. هذه الآية أصل في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى الناس بالتأسي به عليه الصلاة والسلام[30] في سلمه وحربه حيث كان رحيما حليما في كل الأوقات والمواقف مع المسلمين وغيرهم، وقد سن أحكاما وآدابا يجب مراعاتها؛ لتخفيف ويلات الحرب، والحد من آثارها ونتائجها، ومن تلك الأحكام والآداب:

أ- أنه نهى عن الاعتداء.

ب- أنه نهى عن قتال غير المحاربين من الأطفال والنساء، والشيوخ والمرضى والعباد، روى عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: ((انطلقوا باسم الله، وبالله، على ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلا، ولا صغيرا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضعوا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين))[31].

ج- أنه نهى عن الغدر والخيانة، والسلب والنهب، والتنكيل والتمثيل بالقتلى، والإجهاز على الجرحى، وحرم تسميم الآبار والأنهار والأطعمة.

---

[29] – سورة الأحزاب: الآية: 21

[30] – تفسير القرآن العظيم لابن كثير: 3/ 474.

[31] – سنن أبي داود: 86/3.

وكان رسول الله ﷺ يوصي قادة جنوده وسراياه بتقوى الله والمسلمين خيرا، قال ﷺ من حديث له : ((اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدة))[32].

د- أمر بحسن معاملة الأسرى، وخير الإسلام المسلمين بين إطلاق الأسرى دون مقابل، وبين فدائهم بالمال حسب ما تقتضيه المصلحة، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [33]

إن الرحمة المحمدية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في قلب نبيه وحبيبه وصفيه وخليله رحمة عامة لمن آمن ولمن كفر. لما كذبه قومه أتاه جبريل عليه السلام وقال له: " إن الله تعالى قد سمع قول قومك إليك وما ردوا عليك وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم" فناداه ملك الجبال وسلم عليه، وقال: " مرني بما شئت، وإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين "[34] فقال ﷺ : (لا) بل أرجوا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا "[35] فما أحلمك وأرحمك يا سيدي يا رسول الله.

اقتدى الصحابة رضوان الله عليهم ومن جاء بعدهم من المسلمين برسول الله ﷺ، فقد أوصى أبوبكر الصديق أسامة بن زيد عندما وجهه إلى الشام بالوفاء لمن يعاهدهم ، وبالرحمة في الحرب ، وبالمحافظة على أموال الناس ، وبترك الرهبان

---

[32] – نيل الأوطار للشوكاني: 230/4.

[33] – سورة محمد: الآية: 4.

[34] – هما جبلان بمكة.

[35] – هذا الحبيب لأبي بكر الجزائري ص 554.

أحرارا في أديارهم وصوامعهم وقال له : لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا شيخا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بعيرا إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

ويحمل إلى أبي بكر رأس مقتول من كبراء الأعداء المحاربين فيستنكر هذا العمل ويعلن سخطه عليه ويقول لمن جاءه بالرأس لا يحمل إلي رأس بعد اليوم فقيل له إنهم يفعلون بنا ذلك فقال فاستنان (أي اقتداء) بفارس والروم ؟ !. وقد لاحظ ذلك الفيلسوف الفرنسي (غوستاف لوبان) فقال: ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب[36] .

وكان عمر بن الخطاب على الرغم من شدته مع المسلمين رفيقا بأهل الكتاب ، فقد نصح سعد بن أبي وقاص عندما أرسله إلى حرب الفرس بأن يبعد معسكره عن قرى أهل الصلح والذمة ، وبألا يسمح لأحد من الصحابة بدخولها إلا إذا كان على ثقة من دينه وحسن خلقه ، وأوصاه ألا يأخذ من أهلها شيئا ؛ لأن لهم حرمة وذمة يجب على المسلمين الوفاء بها ، وحذره من أن تضطره حرب أعدائه إلى ظلم الذين صالحوه .

وأوصى أبا عبيدة بن الجراح بقوله : وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحقها ، ووف لهم بشرطهم الذي شرطت لهم في جميع ما أعطيتهم.

[36] – كتاب الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي: ص290-291.

وقد أعطى عمر نفسه أمانا لأهل إيليا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، وأنهم لا يضطهدون ، ولا يضارون ، ويمارسون شعائرهم[37] .

كما أمر بإجزال العطاء إليهم ، وعدم تمييز المسلمين عليهم في ذلك؛ مراعاة لظروفهم الخاصة كالحاجة والسن وغيرهما : ففي كتاب الخراج لأبي يوسف : مر الفاروق عمر بباب قوم وعليه سائل يسأل (شيخ كبير ضرير) فضرب عضده من خلفه وقال : من أي أهل الكتاب أنت ؟ قال يهودي. قال : فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن (أي لأجلهم) قال : فأخذ عمر بيده ، وذهب إلى منزله ، فرضخ وأمر له بشيء من المنزل : ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال : أنظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ، ثم نخذله عند الهرم ، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه[38] .

وهذه هي الرحمة بأسمى معانيها تعم الجميع وتشمل الكل ، ولا تقتصر على المسلم وحده وإن كان دافع الإيمان المشترك يجعله أولى بها ، وإنما هو ينبوع يفيض بالرحمة على الناس جميعا ، ولهذا نجد المسلم لا يشعر بالراحة وقد علم أن بجانبه مريضا حرمه المرض لذة الحياة ، أو جائعا حرمه الجوع لذة النوم ، أو منكوبا أصابته الأيام والحوادث بهمومها ، أو يتيما فقد والديه أو أحدهما ، أو أرملة فرق بينها وبين عائلها القدر ، وقال ﷺ : (من لا يرحم لا يرحم)[39] .

ولم يكتف الإسلام ببيان صورة الرحمة الإلهية وآثارها أو بيان صفات المستحقين لها وإن كان هذا يكفي ليتعظ ويعتبر الإنسان و يعكف على سبل

---

[37] – ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك:158/4.

[38] – عباس محمود العقاد: عبقرية عمر، ص 47.

[39] – صحيح البخاري: 1141.

الاهتداء إليها ، بل أمر الإسلام بإشاعة الرحمة في المجتمع ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾[40] فالتواصي بالمرحمة هو الشعور بواجبها نحو الجماعة والفرد، يتعارف عليها الجميع ويتعاون عليها الجميع .

والمؤمنون الذين يسيرون على هدي الرسول ﷺ ووفق سنته الشريفة يجب أن تسود بينهم الرحمة والمودة والعطف ، وأن يواسي كل منهم أخاه فمشاعرهم متلاقية وأحاسيسهم تنبض بالتعاون والتآلف ولهذا وصفهم القرآن بأنهم (رحماء بينهم)[41] وقال ﷺ: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[42] .

والرحمة تحمل صاحبها على أن يخفف الويلات ويمسح العبرات ويكافح الآلام ويدفع الأحزان ويحنو على الضعفاء والمنكوبين كما تحنو الأم على أبنائها ؛ يقول المنفلوطي : لو تراحم الناس ما كان بينهم جائع و لا عريان ولا مظلوم ولا استقرت الدموع في المدامع واطمأنت الجنوب في المضاجع ومحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحوا الصبح ظلام الليل[43] .

وقد قال رسول الله ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين : (لن تؤمنوا حتى ترحموا، قالوا : يا رسول الله كلنا رحيم ، قال : أنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة)[44] إلا أن هناك أقواما مخصوصين ينبغي أن يحظوا

---

[40] – سورة البلد: الآية:17.

[41] – سورة محمد: الآية:29.

[42] – رواه مسلم: 139/16.

[43] – مجلة المجاهد المصرية: العدد132 جمادي الآخرة 1441هـ.

[44] – رواه الطبراني ورواته رواة الصحيح ورد في وصايا الرسول:475/3.

بأضعاف من الرحمة والرعاية وهم الآباء والأبناء والأقارب والأيتام والمرضى وذوو العاهات ونحوهم... فهذه هي الرحمة المحمدية الخاصة والعامة، فصلى الله عليه من نبي رؤوف رحيم، وحقا إنه الرحمة المهداة والنعمة المعطاة وسفينة الرأفة والشفقة فويل لمن عاداه وما والاه، وويل لمن عصاه وآذاه، وويل لمن كفر به أو كذبه في حياته أو بعد مماته، وهنيئا لمن آمن به وأحبه وصدقه ونصره وآزره يعني : أن من قسا على عباد الله فلم يرحم من يحتاج إلى الرحمة فهذا لا تناله رحمة الله يوم القيامة .

المطلب الثالث

الرحمة في الإسلام تشمل الحيوانات والطيور

أ: الحيوان:

الرحمة في الإسلام بعد أن شملت الناس جميعا ، تجاوزتهم إلى الحيوان، دخل الرسول ﷺ يوما حائطا من حيطان الأنصار فإذا جمل قد أتاه ... فلما رأى النبي ﷺ حن وذرفت عيناه . فمسح رسول الله ﷺ سراته وذفراه فسكن . فقال : من صاحب هذا الجمل ؟ فجاءه فتى من الأنصار فقال هو لي يا رسول الله . فقال : أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملككها الله ؟ إنه شكى أنك تجيعه وتؤذيه وركبت عائشة رضي الله عنها جملا، وكان فيه صعوبة فجعلت تردده أي تذهب به وتجيء فأتعبته فقال رسول الله ﷺ عليك بالرفق يا عائشة[45] وكان يقول ﷺ :((في كل ذات كبد

[45] – هذا الحبيب لأبي بكر الجزائري ص: 555.

رطبة أجرا))[46] وقال ﷺ ((لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة))[47].

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه ((أن الجنة فتحت أبوابها لبغي سقت كلبا فغفر الله لها. وإن النار فتحت أبوابها لامرأة حبست هرة حتى ماتت فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض))[48] . فإذا كان هذا عقاب من حبس هرة بغير ذنب ، فماذا يكون حال الذين يحبسون آلاف الناس ويعذبونهم بل يقتلونهم ظلما وعدوانا بغير حق﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾[49] ويقول جل وعلا: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [50].

وعن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت الصادق المصدوق صاحب هذه الحجرة أبا القاسم ﷺ يقول : (لا تنزع الرحمة إلا من شقي)[51] رواه أبو داود واللفظ له ، والترمذي وقال حديث حسن وفي بعض النسخ حديث حسن صحيح.

قال العلقمي : (إلا من قلب شقي ، وهو ضد السعيد ، وهو إشارة إلى الشقاء في الآخرة ، وقد يكون في الدنيا ... رواية الترمذي (من لا يرحم الناس لا

---

[46] – نفس المصدر : ص:555.

[47] – فتح البخاري بشرح صحيح البخاري:239/13.

[48] – صحيح مسلم: 172/16.

[49] – سورة غافر : الآية: 52.

[50] – سورة الفرقان: الآية:37.

[51] – رواه أبو داود واللفظ له، والترمذي وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حديث حسن، وفي بعض النسخ حسن صحيح، ورد في وصايا الرسول:475/3.

يرحمه الله ، ومن لا يرحمه الله فهو شقي)[52]. ورأى عمر رجلا يسحب شاة برجلها ليذبحها فقال له: ويلك قدها إلى الموت قودا جميلا.

ويروي ابن الحكم في سيرة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز أنه نهى عن ركض الفرس إلا لحاجة ، وأنه كتب إلى صاحب السكك ألا يحملوا أحدها بلجام ثقيل ، ولا ينغس بمقرعة في أسفلها حديدة ، وكتب إلى واليه بمصر : أنه بلغني أن بمصر إبلاء نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل ... [53].

ب: الطيور:

وعن عبدالله بن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال : ما من إنسان يقتل عصفورا فما فوقها بغير حقها إلا يسأل الله عنها يوم القيامة قيل يا رسول الله وما حقها ؟ قال :

(حقها أن تذبحها فتأكلها ، ولا تقطع رأسها فترمي به)[54].

وقال رسول الله ﷺ (من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب إن فلانا قتلني عبثا ، ولم يقتلني منفعة)[55].

ويأمر ﷺ برد بيض طائر فزغ لذلك :عن عبد الرحمن بن عبدالله عن أبيه قال :نزل رسول الله ﷺ منزلا فانطلق إنسان إلى غيضة فأخرج منها بيض حُمَرة

---

[52] – نفس المصدر:475/3.

[53] – كتاب الإيمان والحياة: يوسف القرضاوي، ص 289–290

[54] – رواه النسائي والحاكم وقال : صحيح الإسناد من وصايا الرسول: 476/3.

[55] – رواه النسائي وابن حبان في صحيحه، المصدر السابق:477/3.

فجاءت الحمرة ترف على رأس رسول الله ﷺ ورؤوس أصحابه فقال أيكم فجع هذه؟ فقال رجل من القوم : أنا أصبت لها بيضا . قال رسول الله ﷺ أردده رحمة لها[56].

وروى المؤرخون أن عمرو بن العاص في فتح مصر نزلت حمامة بفسطاطه أي خيمته فاتخذت من أعلاها عشا وحين أراد عمرو الرحيل رآها فلم يشأ أن يهيجها بتقويضه فتركه ، وتكاثر العمران من حوله فكانت مدينة الفسطاط .

[56] – رواه أحمد بسند صحيح.

الخاتمة

الحمد لله في البدء والختام والصلاة والسلام على خير الأنام.

أما بعد:

1- فإن الرحمة في حقيقتها تتضمن الرأفة والشفقة والعاطفة الفياضة بالخير لكل الناس ، حيث تتجلى في هذا الوجود الإنساني الكريم بكل ما فيه من الخصائص التي فضل الله بها الإنسان على كثير من خلقه ، ورحمة الله تفيض على عباده جميعا وتسعهم جميعا وبها تقوم حياتهم بل تشمل جميع المخلوقات.

2- فإن رحمة الله في القرآن الكريم لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان فأشرقت وتفتحت لتتلقى ما في القرآن من روح وطمأنينة وأمان وما يلامسها من شفاء ونور وهداية.

3- وللرحمة حضور لافت للنظر في القرآن الكريم تكاد تكون كل شيء إيجابي : وكل خير أو فضل أو بر أو عمل صالح أو نعمة إلهية أو توفيق أو طاعة في معروف.

4- وتتجلى رحمة الله في النجاة من المهالك والتي لا يسلم منها إنسان مهما اتخذ من الأسباب إلا برحمة من الله .

5- ورحمة الله عز وجل بجميع خلقه أوسع وأشمل وأكبر من أن تحدد أو يحصيها عدد ولا نهاية لها فسبحان الرحمن الرحيم .

6- والنبي ﷺ هو الرحمة المهداة والنعمة المسداة كان مثلا أعلى في رحمته وفي حسن تعامله مع الناس صغيرهم وكبيرهم مع الرجل والمرأة مع مؤمنهم وكافرهم ، ولذلك أحبه الناس وآمنوا به والتفوا حوله يجاهدون معه في سبيل الله .

7- الرسول ﷺ جاء بالرحمة وجبل على التواضع ؛ ليقدم للبشرية في آخر عصورها وأقواها وأزهاها ، نموذج الإنسان الكامل الذي أراده الله قدوة للبشر بنوره يهتدون وعلى سنته يمضون .

8- والرحمة تحمل صاحبها على أن يخفف الويلات ويمسح العبرات ويكافح الآلام ويدفع الأحزان ويحنوا على الضعفاء والمساكين والمنكوبين .ولو تراحم الناس ما كان بينهم جائع ولا عريان ولا مظلوم ، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع .

9- هذه هي الرحمة في أسمى معانيها تعم الجميع وتشمل الكل ولا تقتصر على المسلم ولا على الإنسان أينما كان بل تشمل الطير والحيوان .

نسأل الله تعالى أن يعمنا بفضله وأن يشملنا برحمته فهو الرحمن الرحيم .وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصل الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1- تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري، دار الكتب، بيروت.

2- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، طبع بدار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

3- سنن أبي داود، ط، دار سحنون، تونس.

4- صحيح البخاري ط، دار الغد الجديد، المنصورة، مصر.

5- صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية ومكتبتها، القاهرة.

6- عبقرية عمر، عباس محمود العقاد، ط، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية، القاهرة 1980م.

7- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ط، مكتبة الصفا، القاهرة 2003م.

8- من وصايا الرسول ﷺ طه عبدالله العفيفي ط، دار الاعتصام، القاهرة 1998م.

9- نيل الأوطار للشوكاني ط، دار الجبل، بيروت.

10- هذا الحبيب لأبي بكر الجزائري ط، دار الخاني/ السعودية 1989م.

11- مجلة المجاهد المصرية، مصر.

12- مجلة كلية الدعوة الإسلامية الصادرة بطرابلس لسنة 2005- 2006م.